سعد الله الجابري

في ذمة الله

للأستاذ أحمد رمزي بك

رغت الرعود وتلك هدة واجب جبل هوى من آل عبد مناف

غمرتني موجة حزن وتشاؤم قلما أشعر بمثلها ، حينما حملت إلى الصحف في عزلتي الريفية نبأ وفاة الجابري ، وأنا الذي لم أره منذ غادرت أراضي سورية إلا لماماً ، فإذا كتبت عنه بعد وفاته ، فإنما أستعيد ذكرى الأيام التي عرفته فيها فأثرت صداقته في لا كسياسي أو زعيم أو رئيس حكومة بل كرجل مجاهد شاء وده أن يعدني في يوم مضى من بين من يثق بهم ، ممن اتصلوا به وأنسوا بوده ولمسوا شمائله وغمرهم بعطفه وأخوته ومحبته ، فمن أول يوم تلاقينا فيه ، وكان ذلك في بلدة صوفر من أعمال لبنان عام ١٩٤٠ ، كنت أشعر دائماً في حضرته بشيء يجذبني نحوه ويجعلني أطمئن إليه وأنصت لما ينطق به ، ومرت الأيام والسنوات وهي تحمل بين طياتها الحوادث الجسام وأعمال الجهاد المتتابعة المتلاحقة لإقرار الدستور وعودة الحياة النيابية ثم مفاوضات الوحدة العربية التي انتهت إلى ميثاق الإسكندرية ، فإذا هذه المنزلة له في نفسي تعلو كل يوم وتثبت ، فلا تؤثر فيها روعة المراكز ولا تباعد الأيام لأنها كانت هبة من هبات الله ...

وأذكر أنني حضرت معه في الطائرة من دمشق وأمضينا أياماً بالقاهرة وأخرى بالإسكندرية ، فإذا بنا نكتشف أشياء في مصر ، بقيت غامضة عني بعد أن قضيت عشرين عاماً متغرباً فجاء الاتصال بالحقائق مراً على النفس في أيام كانت تمر سراعاً وتجعلنا كل يوم أمام جديد ، وسرعان ما أقنعت نفسي بالبقاء في مصر والتخلف عن العودة إلى دمشق ، وذهبت إلى قصر الزعفران فوجدت الجابري هناك ، ولمحت في نظراته أشياء قرأتها على وجهه ولمستها من إشعاع عينيه ودار الحديث عاماً ، ولما استأذنته قلت إنكم تسافرون غداً ، أما نحن فوالله قاعدون ، فتجهم وجهه وقال لي كلاماً لن أنساه ولم يأت الوقت للإفصاح عنه .

فأمسكت بيديه وضغطت عليهما وقلت : كتب على الذين أمنوا أن يصبروا ويصابروا ، فبالله عليك لا تجعل لهذا الكلام تتمة لا بالقول ولا بالعمل ، فوعدني واتجه سعد الله الجابري اتجاهاً أملاه عليه اجتهاده واتجهت وجهة أملاها الله عليّ ، وجاء موعد سفر الوفد السوري في اليوم التالي فرافقته إلى المطار وبقيت بمصر أنتظر الخروج من وقائع الدهر ، فإذا بالأقدار تدفعني دفعاً إلى غاية لا أعلمها لأن صروح الحياة الاستقلالية اندكت في لبنان ، وإذا أنا بين قرارين : الإقدام والسفر ، أو النكوص والبقاء ، وفي الثاني الخير كل الخير وفي الأول مواجهة الأخطار والمستقبل المظلم ، فاخترت ركوب الأخطار وسافرت على بركة الله . وفي ليلة من الليالي الكالحة السواد ، دخلت قبل انتصاف الليل مدينة دمشق فما علم بمقدمي حتى أذن لي بالدخول عليه . فقال إن مجيئك في هذه الساعة من الليل لا بد أن يكون لأمر خطير . قلت نعم هو لخدمة أؤديها . قال وكيف تركت بيروت والفرنسيون يمنعون التجول بعد السابعة وأراك تركتها بعد ذلك بزمن طويل ، قلت حرستني سيارتان مدرعتان على كل واحدة منهما مدفع رشاش استلمتني واحدة من وسط البلد وأخرى من فرن الشباك ، وتركتني الثانية عند عاليه ، ولازمتني الأولى حتى ظهر البيدر كأنهما تتوهمان أن طريق سيكون إلى بيشامون . ولما عرضت عليه ماجئت من أجله قام فوراً إلى قصر رئاسة الجمهورية وأطال المكث هناك ، ونمت مستريحاً لأني وضعت الأمر بيد رجل إذا اقتنع فعل . وفي الصباح المبكر أعلمني دولة جميل بك بما طمأن قلبي ، وفي المساء لقيت الجابري فإذا هو يمزح كعادته ويقول : تصور لو تأخرت مجازفتك دقائق معدودة إذن لضاع الوقت منا .

ثم تغيرت الأيام وتبدلت ، أما سعد الله الجابري وطائفة من أهل سورية فلم يتبدل لهم موقف معي . لقيته بعد ذلك بمصر فما إن وقع نظره علي حتى خف إلى لقياي وأخذني بالعناق على مشهد من رجال مصر الذين دهشوا من هذا اللقاء . إنهم لن يعرفوا ما كان بيننا في طريق الجهاد الوعر لتحقيق المثل والأهداف . ومات سعد الله وكتب عنه الكتاب وإذا بكثيرين يقولون إنه كان عظيما في مواقفه الحاسمة وتصريحاته الجريئة ، أما أنا الذي عرفته قبل أن يعتلي المراكز ويحكم ، فأقول إن مواقفه وتصريحاته

كانت أمراً عادياً يأتيه كل يوم ، كانت جزءاً من شخصيته وفكره وروحه لا يشعر بخطورتها ولا تشغله لحظة واحدة بعد إتمامها وهذا سر عظمته وتفوقه ...

والآن وقد أغمض عينيه واستراح بعد أن كان ملء عين الزمن ، لا يهمني أن أسوق المدح إليه وأن أشيد به وأقول إنه من أولئك الذين جاءت إليهم العظمة تسوقها الأقدار دون أن يكافوا أنفسهم أن يلفتوا الأنظار إلى أفعالهم وأقوالهم وإشاراتهم ليقر لهم الناس بالعظمة والعلياء ، وإنما هو رجل جاء إلى الدنيا والعظمة والبروز والعلياء عنصر كامن فيه ، تراه في خلقته ومظهره وحديثه ، فيدفعه إلى الخطير من الأمور في كل يوم ليعالجه بفكره وعقله وأعصابه وإيمانه ، ويعرف عنه الناس هذا من أهله وعشيرته وقومه وأصدقائه قبل أن تعرفه عنه المناصب العليا وترفعه الزعامة والسياسة إلى مراكز الحكم والاقتدار .

ولقد رأيته سهلا حتى إذا اقتنع بأمر وملك عليه فؤاده وفكره اندفع إليه دفعته التي لا تبالي ، واقتحم العقبة وراء العقبة والناس حيارى من أمره يتساءلون أهي دفعة عن حق وعقيدة وإخلاص أم هي لغاية في نفسه ؟ أما أولئك الذين عرفوا وفهموا وأحبوا هذا الرجل فلم يكن لهم أن يتساءلوا لأنهم عرفوا البطولة والإخلاص يجتمعان في قلبه ، ولمسوا المحبة والإيمان يلتقيان فيه ، فهم لن يتساءلوا ، إذ هو في تخيلهم كما هو في نفسه : سيف من سيوف الحق جاء والناس في حاجة إليه ، فأدى ما عليه ولم لماماً في حياة أمة لاشك أنها تحن لذكراه وتحمل له أطيبها في القلوب

في مدينة حلب ولد ونشأ سعد الله الجابري في بيت قديم لم أفراد منه في القرن الماضي الهجري والقرن الحالي وأدوا للدولة العثمانية والخلافة جليل الخدم ، نجد تراجمهم في أعلام النبلاء وفي تاريخ حلب للبالي .

وحلب قلعة قائمة في الخطوط الأمامية للعروبة ، ولأهلها المكانة البارزة والمنزلة الراسخة في تاريخ العرب والإسلام ، أما نحن أهل مصر فقد ارتبطنا بهم منذ جمعنا وإياهم رجل مصر الكبير أحمد بن طولون ، وعدا فترات قصيرة ، اشتركنا مع أهل حلب في كتابة تاريخ الإسلام لعصور مضت ، وحاربنا الأمم من مختلف شعوب الأرض وهم معنا في الصف كتفاً لكتف ، فامتزجت دماء شهدائنا بدماء شهدائهم ، وما من شدة لقيتها قلعة حلب إلا شاركتها فيها قلعة مصر ، وكانت نيابة حلب ثالثة المراكز الكبرى في الدولة المصرية القاهرة [1] ، وفي تاريخ مصر عدد من ملوكنا بدأوا حياتهم كنواب للسلطنة في حلب .

فهذه حلب درة في جبين العرب ، ولأهلها المكانة السامية جزاء ما قدموا في سبيل العروبة والإسلام ، ولذا لا تعجب أن يكون ابنها البار سعد الله الجابري في مقدمة هذا الرعيل من العرب الذين آمنوا بأن الوحدة العربية وجامعة الدول العربية هي حلم من الأحلام بغير مصر العربية ، لأن بلادنا هي قلب العروبة ، بل العروبة ومصر صنوان . وذلك موقف للجابري وجميل مردم وغيرهما من رجال سورية يجب أن يعرفه كل مصري ولا ينساه . بل أمانة في أعناقنا أن نحفظ لهؤلاء القادة الجميل الذي أسدوه إلينا في وقت كان عدد المؤمنين بمصر يعد على الأصابع وفي زمن كان من يجاهر بعروبة مصر يعد عندنا مارقاً من الوطنية خائناً للقومية المصرية . فلنذكر هذا جيداً ولا ننسه .

لم يكن سعد الله الجابري ممن تستهويهم القيادة والسيطرة على الجماهير والتحرك من مكان إلى مكان وفي ركابهم «القبضايات [2]» بل كان رجلا وضع ما يملك من مال وعمل في خدمة أمته ، معتمداً على ماض ناصع أبيض ، وعلى نفسه الكبيرة وما تحمل من آمال كبار ، وكان في أدوار حياته مجموعة أعصاب وإرادة تدفعها صراحة متناهية وإخلاص وتفان في سبيل المصلحة العامة .

وأول ما يبدو في شخصيته هو توفر عدد من الصفات الممتازة التي يربط بينها نوع من التوازن والانسجام تلمسها من حديثه مسك ومظهره وتأنقه وابتسامته ، فهو قد نشأ في العز والسعة فظهرت أقواله وإشاراته وحركاته طبيعية لا أثر للتكلف فيها ، ولذلك اندثرت من قرارة نفسه ، وتواروت كل آثار مركب النقص الذي يشكو الكثيرون منه ، ونحرر بهذا من طائفة من مواطن الضعف التي لا يقدر على التحرر منها من لم ينشأ نشأته ويذهب مذهبه في فهم الدنيا .

وكان مؤمناً بحق بلاده وعظمتها ، وهذا الإيمان بجعله يستبق الحوادث ويطلب من قومه الاسراع في السير أو يستحثهم على

(١) هكذا ورد وصف مصر في الوثائق الرسمية (٢) القبضايات